الجامعة النورية العربية :٤٧ عاما للنهضة التربوية

عبد الرحمن الفيضي مولافالي

إن الصحابي الجليل مالك بن دينار(ر) وأصحابه هم الذين وضعوا حجر الأساس للتعليم الديني في ربوع كيرالا حيث بدؤوا حلقات الدروس في المساجد على طراز أهل الصفة في المسجد النبوي. فكان الناس يأتون إلى المساجد لتعلم العلوم الدينية وحل المشاكل المتنوعة مما جعل المساجد محاور يدور حولها رحى حياة الأمة المسلمة كما كانت عليه المساجد في سالف القرون في البلاد الإسلامية .

ومن دواعي الأسف أنا نجد فجوة واسعة في التاريخ المسجل بعد عصر الوفد الأول إلى عصر العلماء المعبريين المخدومين فلم نجد في هذه الفترة وثائق تاريخية تدل على أوضاع الأمة وأدوارها وروّادها ودعاتها وتراثها ونظامها في التعليم الديني ونحوها- من القرن الثاني للهجرة إلى القرن الثامن- رغم أنه من المتيقن أن النشاطات الدعوية قد ازدهرت وتبلورت في هذه المدة المديدة ، وأنه وفد إلى هذه الديار علماء بارزون قاموا بخدمات جليلة للإسلام والمسلمين. وبثوا أنوار العلم في أرجاء هذه البلاد وأغنوا التراث الإسلامي بتحفهم النفيسة غير أن هذا التراث القيم الغالي صار أدراج الرياح أثرا لإهمال المؤرخين في قيدها عن طريق التسجيل .

ولكن هناك أدلة كافية تدل على أن كيرالا كانت روضة مزدانة للعلوم الدينية في تلك العصور. فإنا نقرأ في تحفة الأنظار بغرائب الأمصار للرحالة الشهير ابن بطوطة أنه رأى أثناء رحلته إلى مليبار كثيرا من المعالم العربية كما وجد القضاة والمدرسين والأئمة الكبار من العرب والاهتمام بالتعاليم الدينية.

ونرى في طول كيرالا وعرضها عدة مقابر أثرية يقال إن بعضها من قبور الصحابة رضي الله عنهم، وقد كتب على بعض هذه القبورأسماء أصحابها بالخط العربي القديم الذي ليس فيه نقاط ولا أشكال. ومن المعروف أن هذا النوع من الخط إنما كان

سائدا قبل ٦٠ للهجرة. وهناك مكاتب عريقة في مساجد عتيقة فيها وثائق تدل على أن حلقات الدروس كانت جارية في تلك المساجد قبل عدة قرون . فمن بينها المكتبة العتيقة الزاخرة بالمخطوطات النفيسة في المسجد الأثري في تانور. فمما يدل على أن الدروس الدينية والعربية كانت قديمة في هذا المسجد نسخة كتاب التنبيه في الفقه الشافعي المحتفظة في هذه المكتبة. كتب في أول أوراقها باللغة الف العربية هكذا: وكتبه الفقيرمحمد بن عبد الله الحضرمي الشافعي مذهبا والقادري مشربا والازهري تعلما وسندا ووقفه لله في مسجد البركة الكبرى الساحلي بتانور حين كان مدرسا ومفتيا فيه وسنة الوقف كما كتب ٦٧٥هجرية.

الطريقة التقليدية للتعليم الديني

إن حلقات الدروس في المساجد أو دروس المساجد على ما هو التعبير الشائع بين أوساط الشعب كانت الطريقة السائدة للتعليم الديني في كيرالا منذ زمن بعيد . وكانت المساجد تبني على طابقين بحيث تضم قاعة لإلقاء المحاضرة وغرفا لسكنى المدرس والمتعلمين كما كانت بنية المساجد على هذا الطراز في كثير من البلاد الإسلامية . وكانت لدروس المساجد مزايا متعددة زادت في رواجها وانتشارها حتى بعد ظهور الكليات الشرعية الحديثة التي قلدت المعاهد المدنية العصرية في الطريقة الأكاديمية والتي جمعت بين القديم الصالح والجديد النافع . ومن أبرز مزاياها انها تخلو من النفقات الباهظة التي تكلفها الكليات الحديثة حيث إن الأهالي يتكلفون جميع تكاليف المدرس والدارسين إلى جانب ان مبنى المساجد يغني عن قاعة المحاضرة وسكن المدرس والدارسين.

وكان المسلمون في هذه الديار يبجلون العلماء والمتعلمين ويؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، حتى كان كثير من الفقراء يرسلون أبناءهم إلى دورس المساجد طمعا في حصولهم على ما يسد الجوع و يستر البدن في عصر ساد فيه الجدب والقحط وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وجدير بالذكر أن الإقبال على الدنيا المسبب عن ظهور العولمة قد أدى إلى رغبة الناس عن مجال التعليم الديني في العصر الراهن ، وأن الزمان يتطلب من أولى الأمر أن يقوموا بإجراءات إيجابية للتصدي لهذه التحديات ولإحياء هذه الطريقة التراثية .

مساهمة العلماء المعبريين

إن العلماء المعبريين قد لعبوا دورا فعّالا في ترويج دروس المساجد وتوسيع نطاقها وإعادة تنظيمها وفقا لمتطلبات العصر . والعلماء المعبريون هم الذين نزحوا من السواحل الشرقية من جنوب مليبار التي تشمل مدينة كيلاكرا، وكايال فطن، وغيرهما إلى مدينة كوتشن، ثم استوطنوا في مدينة فنان وتلقوا منصب القضاء فيها وفي البلاد المجاورة وقاموا بجهود عملاقة في سبيل نشر العلوم الدينية وتوعية الأمة الاسلامية وأبلوا فيها بلاء حسنا. وقد أنجب المعبريون الذين اشتهروا بلقب المخدومين تعظيما وتبجيلا علماء عباقرة قادوا الأمة وأرشدوهم في جميع جوانب الحياة . فكان منهم من جمعوا بين القيادة الروحية والقيادة المادية فكانوا رهبانا في زوايا المساجد وفرسانا في ميادين القتال.

وكان هناك علاقة مباشرة وطيدة بين علماء كيرالا وبين العالم العربي الاسلامي ، ساعدت إلى حد كبير في النهضة العلمية الدينية في هذه الديار. فكان الشيخ زين الدين المخدوم الأول الملقب بالمخدوم الكبير خرّيج جامع الأزهر في القاهرة . وقد تأثر كثيرا بطريقة التعليم الديني في جامع الأزهر حتى بنى الجامع المشهور في مدينة فنان ليكون مركزا للعلوم الدينية ومقصدا يأوي إليه المتعطشون إلى التروي بالدراسات الإسلامية العميقة من داخل الهند وخارجها . وحقق الله أمنية هذا العلامة الداعية حيث طار صيت جامع فنان في الآفاق، وصارت مدينة فنان ملقبة بمكة مليبار بين أهالي هذه البلاد فكان المتعلمون يفدون إلى جامع فنان للدراسة العليا ويتخرجون منه متضلعين في العلوم الاسلامية ومتسلحين بالكفاءات اللازمة في ميدان الدعوة والتدريس.

وفي عهد زين الدين المخدوم الثاني بلغت شهرة فنان ذروتها وقصدها الطلاب من أصقاع بعيدة وكان المخدوم الصغير تلميذ الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي المكي صاحب تحفة المحتاج في الفقه الشافعي . ويقال إن الشيخ ابن حجر رحمه الله قد زار جامع فنان ومكث فيه أياما تلبية لدعوة تلميذه العزيز وتشجيعا له على الأخذ بزمام النهضة العلمية في ديار مليبار. والمخدوم الصغير هو الذي ألف كتاب فتح المعين الذي يعتبر مرجعا مهما في المسائل الفقهية على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله ، والذي ما زال مضمنا في المناهج الدراسية في كثير من الجامعات والمعاهد

الدينية في عديد من البلاد الإسلامية ، كما ألف كتاب تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين ، الذي يعتبر أول كتاب تاريخي عن كيرالا ، والذي قد ترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة في العالم .

أثر الإستعمار في مجال التعليم الديني:

كان المسلمون في كيرالا يتمتعون بمكانة سامية في الحياة الاجتماعية حتى آخر القرن الخامس عشر الميلادي . ولكن بعد أن ألقى الاستعمار أوزاره على البلاد انقلبت الأوضاع رأسا على عقب . فكان استعمار القوات الأجنبية نقطة تحول في تاريخ مسلمي كيرالا حيث طرحهم إلى مقاومة عنيفة متتابعة دامت زهاء أربعة قرون ونصف . وهذا النضال المتواصل أوقع المسلمين من أعلى القمة إلى أسفل الوهدة . فصار الذين كانوا سادة قادة بالأمس متخلفين في جميع ميادين التقدم والازدهار. وكان لهذه الأوضاع المتغيرة أثرها في مجال التعليم الديني حيث تركزت همة الأمة على مقاومة الاستعمار كما حاول الاستعماريون ترغيب الناس عن التعليم الديني لماخافوا من أن يبذر في قلوبهم بذور الإيمان والبطولة، ويحملهم على الكفاح والدفاع للاستعمار البغيض.

ولكن مسلمي كيرالا نجحوا إلى حد في الاحتفاظ بتراثهم العلمي الزاخر عن الضياع والإهمال . فإنهم بذلوا عناية كافية لهذا المجال وأهملوا جميع الحواجز والعوائق وأعانوا العلماء والمتعلمين على الرغم من ضيق ذات يدهم مما أدى إلى استمرار الصحوة الدينية والنهضة العلمية في هذه المنطقة حينما ارتضخت البلاد تحت براثين الاستعمار.

تأسيس الجامعة النورية العربية:

وما لبث أن جعلت شهرة فنان تتضاءل شيئا فشيئا حتى اضطرالمتعلمون إلى البحث عن موارد مستحدثة للحصول على الدراسة العليا ، حتى صاروا يقصدون مدرسة دار العلوم بديوبند في شمال الهند، ومدرسة الباقيات الصالحات بويلور في ولاية تامل ناد . وكانت تكاليف الرحلة إلى هذه البلدان البعيدة أعيت كثيرا من المتعلمين المنتسبين إلى أسر فقيرة عن تحقيق أمنيتهم والوصول إلى هدفهم على أن الأوضاع المناخية في هذه البلدان لم تكن ملائمة للطلاب من كيرالا مما جعل الدراسة العليا

في العلوم الشرعية أمنية من الأماني بالنسبة إلى عدد غير ضئيل من الدارسين في دروس المساجد .

ولم يلبث أن فطن العلماء والأمراء بخطر الموقف وأدى تفكيرهم الجاد إلى ضرورة تأسيس جامعة إسلامية في كيرالا لتخرج علماء أكفاء يقومون بنشاطات دعوية متنوعة ويقودون الأمة على سواء الصراط. وتقدمت جمعية العلماء لعموم كيرالا لهذه المهمة وتكلفت هذا المشروع النبيل على أكتافها ، كما تقدم كثير من الأسخياء لتمويل هذا المشروع المبارك، وكان من بينهم الرجل التقي السخي الصالح بافو حاجي الذي وقف جميع ممتلكاته الطائلة لهذه الجامعة الشامخة . وأخيرا وضع حجر الأساس للجامعة في تربة فيض آباد في الثالث من فبراير سنة ١٩٦٣م على يد السيد شهاب الدين الكاليكوتي المعروف بزهده وورعه وعلمه، وقام بافتتاح التدريس في الجامعة علامة كيرالا الأستاذ محمد مسليار القطبي في السنة نفسها.

مزايا الجامعة وأهدافها:

الجامعة النورية العربية معهد ديني شامخ أسس على التقوى وكان مؤسسو الجامعة ومدرسوها من خيرة علماء كيرالا وسادتهم وصفوتهم . ولم يكن لديهم أي إغراء خلف تأسيس الجامعة إلا الحرص على إنجاب علماء بارزين يتحملون مسؤولية الدعوة الدينية على كواهلم ويرشدون الأمة في مجالات عيشهم. وهذا الاخلاص الساذج هو الذي جعل أفئدة الناس تهوي إليها ، وجعل الجامعة تفوز بنجاح باهر في تحقيق أهدافها .

وكان ممن تقلد زمام إدارة الجامعة النورية العربية السيدعبد الرحمن البافقيه الملقب بقائد القوم الذي بذل كل جهوده في سبيل نشر التعليم الديني ، والسيد أحمد فوكويا الزعيم الروحي المبجل المبارك والأستاذ بافو المسليار الجفني العالم العابد الزاهد، والسيد محمد على شهاب القائد المحنك الموفق الذي طار صيته في أرجاء المعمورة وصار مفخرة من مفاخر الهند .

وتلقى التدريس في الجامعة خيرة علماء كيرالا من بينهم الشيخ أحمد المسليار الكانياتي الملقب برئيس المحققين وأستاذ الأساتيذ، والأستاذ شمس العلماء أبو بكر المسليار الذي غلب لقبه على علمه واعترف بفضله الموافق والمخالف، والشيخ أبو

بكر المسليار الكوتوملي الذي كان اعجوبة زمانه في العلم والورع، والشيخ حضرة أبوبكر المسليار العالم المدقق وغيرهم من العلماء الأعلام.

ومن أبرز مزايا الجامعة النورية أنها احتفظت بأصالة العلوم الدينية وقد استها ورسخت أقدام أبنائها في مجال النشاطات الدينية ، وفضلت العلوم الدينية على العلوم المادية على أنها قامت بتدريب أبنائها للتصدي لتحديات العصر الحديث ومواجهة المشكلات والمعضلات حينما يمارسون الفعاليات الدعوية . وتظهر أهمية هذا الموقف حينما نرى أنه كان هناك معاهد إسلامية سبقت الجامعة النورية في الوجود ضمّنت الدورات الجامعية الحكومية في مناهج دراستها وجنّبت العلوم الشرعية إلى الهامش مما أدى إلى تخريج قوم لم يغنوا في مجال الدعوة الإسلامية شيئا . وما لبث أن عضوّا على الأنامل حين لاينفع ندم النادمين.

ولا يعني هذا أن الجامعة النورية اتخذت موقفا سلبيا إزاء الشهادات الجامعية الحكومية، بل أنها لم ترغب في تلك الشهادات ولا عنها. وإنما كان شغلها الشاغل وقصدها الأهم تخريج العلماء المخلصين الذين يحصرون أنفسهم في مجال النشاطات الدعوية، ويعملون في مناصب دينية عالية ما بين قاض وخطيب وإمام ومدرس ومعلم . وأما في هذه الأيام فقد أحست الجامعة بالتحديات المحدقة بمجال التعليم الديني أثرا للإغراءات المادية المتزايدة. فقد شرعت الجامعة في تطويرات غير جذرية لمواجهة هذه التحديات.

مساهمات الجامعة النورية في مجال الدعوة

إن الجامعة النورية العربية قد نمت وازدهرت وصارت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . اعترف الشعب الاسلامي في كيرالا فضل الجامعة ومساهماتها في النشاطات العلمية والدعوية والفكرية طول السنين الماضية . وإن الجامعة أنجبت علماء بارعين أثروا المجتمع الإسلامي بإنجازاتهم الغالية وإسهاماتهم النفيسة . فكان من خريجيها الملقبين بالفيضيين خطباء مصقعون وأدباء مبدعون ودعاة مخلصون وقضاة متقون . نراهم في طليعة النهضة العلمية والثورة الفكرية ، وفي مقدمة النشاطات التربوية والفعاليات الدعوية . نجدهم في عمادة الجامعات والمعاهد ، ورئاسة المجلات والجرائد ، وإمارة المحلات

والمساجد . ويكفي شاهدا على مساهمتهم أنا لانكاد نتخيل مجال النشاطات الدينية في كيرالا في العقود الأربعة الأخيرة بدون مساهمة الفيضيين.

وقد أبدى المسلمون في كيرالا ولاءهم ووفاءهم لهذا الصرح العلمي الشامخ حيث يلبون دعوة الجامعة في جميع المواقف ويفدون إلى رحابها أفواجا للمشاركة في الاحتفالات السنوية من غير دعاية مدبرة ولا حملة مكثفة. فيجتمع في الاحتفالات السنوية عشرات آلاف من الناس يريدون أن يؤدوا حقوقهم إزاء الجامعة . ولا يستغرب هذا الاقبال المتزايد من الناس في شؤون الجامعة ،لأنه ربما لايوجد أهالي قرية أو بلدة في كيرالا لايتمنون أن يكون إمامهم أو خطيبهم أو مدرسهم خريج الجامعة النورية العربية . وهذا الاتجاه هو خير شاهد على مكانة الجامعة النورية في نفوس المجتمع الإسلامي.

